Coptology

عيد تجسد الابن الكلمة

ربنا يسوع المسيح

د. جورج حبيب بباوي

٢٠١١

www.coptology.org

عيد تجسد الإبن الكلمة
ربنا يسوع المسيح

عندما قرأت كتاب تجسد الكلمة في عام ١٩٥٧ أي منذ قرابة نصف قرن من الزمان، أدركت بعد عدة مرات من قراءته أنني أمام حجر الزاوية في الإيمان المسيحي: "الله الذي ظهر في الجسد" (١ تيمو ٣: ١٦). وتمر السنوات في دراسة التاريخ، والآباء والفلسفة ثم الألسُنيات، وبالذات علاقة اللغة الإنسانية بالفكر والحياة النفسية والعلاقات الاجتماعية، ثم علم الاجتماع. وفي كل مرة كنت أعود فيها إلى تجسد ابن الله، أعود إلى "تجسد الكلمة" للمعلم العظيم الذي أدين له بكل ما يوصف حقاً بأنه الايمان المسيحي. وهو نفسه القديس أثناسيوس بابا الإسكندرية الذي حُوكِمَ معي عدة مرات، ووقع عليه هو قرار الحرمان معي بواسطة ٧٢ أسقفاً في كنيسته التي لا تعرفه إلاَّ اسماً وعيداً يُذكر في السنكسار، إذا تصادف وجاء خبر نياحته يوم الأحد، ثم يختفي الاسم مع أسماء أخرى لامعة أشرقت بنور المسيح: أنطونيوس الكبير – كيرلس الكبير – ديديموس الضرير – أوريجينوس وغيرهم .. ومع ذلك يظل الاسم علماً يرفرف على تاريخنا الناصع ويدعونا إلى الدراسة.

تُرى ماذا كان سيقول القديس أثناسيوس لو أنه قرأ الدراسات الحديثة في حقل الألسُنيات؟ ودور اللغة في تكوين العقل الإنساني، وعلاقة هذا بتجسد الكلمة *Logos*؛ لأن الكلمة *Logos* ليس هو الكلمة التي تنطق، فهي *Rema* في اليونانية.

الكلمة – الفكر – العقل – الجسد:

لم تعد مفردات اللغة مجرد كلمات أو علامات *Signs* بل هي آليات الفكر، والفكر هو أهم ملامح الحياة الإنسانية. ولكن الفكر لا يولد ولا يتطور من لا شيء:

الفكر آتٍ من أفكارٍ سابقة، ومن مكونات عامة سائدة *Mental Concepts* في الحياة العقلية. هذه تأتي من الحياة الاجتماعية ومن النظم السياسية ومن القيم ومن صراعات الشعوب .. الخ فالينابيع كثيرة ولا يمكن حصرها إلاَّ إذا تم الحصر حسب مدرسة *School* فلسفية معينة.

السائد الآن أن اللغات الإنسانية لا يمكن فصلها عن الجسد الإنساني؛ لأن الجسد له وجود وله وظائف، وهو الحياة الإنسانية في شكلها الإنساني الحقيقي المنظور أو المادي. وكل مفردات اللغة تنشأ دائماً من الاختبار المحسوس لكي ترتفع قليلاً نحو ما هو غير محسوس، *Tangible*. فالمنظور *Visible* هو الذي يُكوِّن مفردات أي لغة، وربما يعلو *Transcend* بعد ذلك إلى ما هو غير مرئي، وهو ما يتفق البشر عليه؛ لأن كل الأوصاف التي تُعطى للإنسان تكون ذات مضمون عقلي معين، وذلك مثل وصف "الإنسان الحر"، فالحرية هي *Concept* هي مضمون عقلي، اتفق البشر عليه واختلفوا أيضاً. ويعلو المضمون العقلي إلى آفاق عقلية تنظم قواعد الفكر، تلك التي وضع أساسها فلاسفة اليونان فيما يعرف عندنا باسم "المنطق" *Logic*. وقد تطور المنطق بعد أن امتزج بالرياضيات، وصار لدينا منذ عصر مبكر حوارات أفلاطون التي هي أصلاً حوارات سقراط *Dialogues of Socrates* التي تمثل إحدى العلامات الهامة في تلك الحقبة على قدرة العقل على إثبات أو إنكار قضية ما. لأن الجدل *Dialect* هو بداية الفكر الصائب الذي لا يقبل الموروث لمجرد أنه سائد *Common* وإنما لأن هناك منطق يجعلنا نرفض أو نقبل ما يُقال.

أخيراً جاء عصر خلية الكمبيوتر، وما يُعرف بثورة المعلومات، وانفجرت ينابيع المعرفة القديمة والجديدة .. وكثر اللغو والغث، كما انتشر الجيد والثمين. وانهارت حقبة عصر التنوير وتلاها *Modernism* "الحداثة" ثم *Post-Modernism* "ما بعد الحداثة"، واختفى النموذج الحضاري، بل والفكري *Paradigm* ولم يعُد لدينا سوى قطع متناثرة مثل فروع شجرة كبيرة وعلى كل فرع مئات الأوراق Leafs.

ومن ثَمَّ جاء التشتت الفكري من تعددٍ افتقر إلى ما يربط تلك الأجزاء المتناثرة بعضها ببعض. من هنا جاءت مقولة *David Le Breton* الأستاذ بجامعة ستراسبورج

في كتاب مشهور "انثروبولوجية الجسد والحداثة"، إذ يقول المؤلف إن الإنسان في الغرب "اكتشف في نفسه جسداً" وصار الجسد "هو علامة الفرد، ومكان اختلافه وتميُّزِه .. الخ"[١].

ومع انشطار ما بعد الحداثة، أصبح من الضروري أن يجد الإنسان مرجعيةً، شيئاً ثابتاً، فقد تأرجحت النظريات، وأصبح ما هو ثابت ما هو مرئي أو منظور، وعادت مفردات اللغة من جديد إلى الجسد، إلى ما هو حقيقي أو كائن...

الجسد والتجسد الإلهي:

التجسد الإلهي هو حقيقة ملموسة ومنظورة تخترق كل حواجز الفكر. التجسد ليس فكرةً *Idea* ولا هو مضمون *Concept* ولا هو رؤية *Vision* بل اتحاد إلهي بالإنسان، بالجسد؛ لأن روح الإنسان وعقله يمكن حصارهما في المصطلحات العقلية وكلاهما غير محسوس. وقد جاءت صدمة التجسد للعقل الإنساني وحياته من مصدرين:

الأول: هو أن الله نفسه غير مرئي.

الثاني: أن الجسد الإنساني هو محور صراعات ثقافية واجتماعية قد تعلي من قيمته، وقد تنزل به إلى الدرك الأسفل، وهو عُرضة لأن يتحول بدوره من وجود *Existence* إلى فكرة *Idea* وهو عند الذين كانت لهم خبرات سيئة لا سيما في طفولة شاردة تعيسة أو أمراض وعلل، مشكلة. فالجسدُ عبءٌ لا يمكن أن يتغنَّى به أحد، ويبقى السؤال: أليس التجسد بدوره معرضاً للرفض والشجب؟ بكل تأكيد هو عرضة لكل اتهام آتٍ من الماضي أو من خبراتٍ إنسانيةٍ مؤلمة وحزينة. لكن الكلمة *Rema* مسموعة أو مكتوبة لها مصيرٌ أتعس من مصير الجسد، فهي بدورها معرَّضةٌ للتزييف والتحوير والتدليس، بل والرفض. ولو دخلنا محكمة الحق (كما يقول القديس أثناسيوس في تجسد الكلمة فصل ٢٩: ١) لوجدنا أن وجود الله في جسد بشري له

---

(١) أنظر ص ٧ من الترجمة العربية التي قام بها الأستاذ محمد عرب صاصيلا ١٩٩٣ – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

حظٌ أوفر وأحسن من الوحي الذي يمكن تطويعه لفظياً حسب المواقف والاحتياجات، لكن يظل الوجود الإلهي في الجسد وجوداً متفوقاً على الاستعلانات النبوية، بل ويعلو عليها، ويتحدى كل محاولات تحول هذا الوجود إلى كلمات أو إلى أفكار. من هنا بالذات برزت شخصية يسوع كشخص *Person* أو أقنوم *Hypostasis* لأنه يظل فوق كل المحاولات الفكرية – مهما كانت – لأن يتحول إلى كلمات أو أفكار. وحتى مع نشأة الخرستولوجي *Christology* في بداية القرن الثالث، وهو يعود أصلاً إلى ما قبل الثالث على يد القديس ايريناوس[١]. لكنه، أي الخرستولوجي لم يكن يهدف إلى أن يتحول يسوع الشخص إلى فكرة أو إلى نظام عقلي فلسفي، بل كان دفاعاً عن:

* تواضع الله ومحبته التي جعلته محباً للبشر.
* مشاركة الله الحقيقية للحياة الإنسانية؛ لأنه أخذ جسداً ونفساً وعقلاً وإرادةً وعواطفَ إنسانيةٍ، ولم يكن تجسده خيالاً أو مجرد رؤيا في جسد.

ودخل تجسد الكلمة الحضارات الإنسانية والتي تتنوع مواقفها بين الازدراء والرفض، ولكن ظل تجسد الكلمة تعليماً يتحدى الإنسانية الرافضة للحياة الإنسانية.

في العصر الحديث، في الحضارة الغربية اعتبر البعضُ رسالة المسيح رسالةً مسموعةً *Audio* لفظيةً، وقصةً تقال ... وضاع من هذا الاتجاه "الزخم والثراء *Wealth*" الذي يحمله اتحاد الله بالإنسان، أو اللاهوت بالناسوت كما درج القول. وقد ضاع هذا الثراء؛ لأن الوجود المستيكي *Mystical* لله – الذي لم يعد موضوعاً عقلياً للتأمل، بل الواقع الإلهي / الإنساني – هو الوجود المستيكي على مستوى الحياة الإنسانية في يسوع المسيح. هذا ما يعبِّر عنه معلمنا الكبير أثناسيوس بوجود الكلمة في العالم وفي الإنسانية التي أخذها من القديسة مريم؛ لأن التجسد لم يُحاصر *Limit* الله ولا احتواه فصار محدوداً *Finite* في الجسد.

---

(١) راجع البحث الممتاز:
Gustat Wingren: Man and the Incarnation, 1947-1959-2004

المواقف المتباينة من التجسد:

قديماً كانت الغنوسية هي أول رفض لتجسد ابن الله؛ لأن الجسد دنيء وحقير ومن صنع إله الشر، والغنوسية هي إحدى شرائح *Slices* الثقافة الهللينية السابقة على عصر المسيحية. كما تعتبر الغنوسية هي مدرسة اليأس *Despair* من الإنسان، خصوصاً وأن ظروف الإمبراطورية الرومانية الاقتصادية والعسكرية لم تكن تسمح بالتفاؤل *Optimism*، فالحروب والمجاعات جعلت الإنسان يهرب إلى عالم آخر هو عالم الرؤى، وعالم ما وراء الواقع الإنساني.

وتضرب الغنوسية موضوع اتحاد اللاهوت بالناسوت بشكل يظهر بأجلى بيان في النسطورية. لأن فكرة استحالة وجود جوهر *Essence* مع جوهر آخر في شخصٍ واحد، وهي الفكرة التي شاعت في فلسفة أرسطو، كانت هي السبب فيما عجز نسطور عن استيعابه.

هذه الاستحالة بدورها كانت مبنية على تصور فلسفي محض لفكرة الجوهر *Essence* وهي فكرة مستوحاة من عالم مادي مغلق تحركه القوانين الأزلية، وهي قوانين يخضع الله نفسه لها؛ لأنه جزء من الكون *Universe*[1].

والجوهرُ ليس وجوداً، بل هو فكرةٌ صائبة وجيدة، تحدِّد – فلسفياً – ما هو كائن ويمكن وصفه. أمَّا اتحاد جوهر بجوهر آخر، فهذه ليست مقولة فلسفية، ولا هي قضية عقلية يمكن أن تُفحص فلسفياً. طبعاً نستطيع أن نقول إن هذا عملاً إلهياً قام به الكلمة الخالق، ولكن هذا هو في الحقيقة أسهل حل *Solution* تلجأ إليه التقوى المسيحية. وهو أمرٌ مقبول، لكن – فلسفياً – يبدو أن الحل الفلسفي هو أن يحل اللاهوت حسب التواضع الإلهي أو الإخلاء *Kenosis* (مشتقة من كلمات الرسول بولس في (فيلبي ٢: ٦) "أخلى ذاته وأخذ صورة العبد")، لكي يحمل هذا الإخلاء ليس جوهراً، بل حياةً لا تلاشي الحياة الإنسانية، بل تتحد الحياة الإلهية بالحياة الإنسانية؛

---

(١) راجع: الوجود شركة للأب يوحنا زيزولاس – تعريب د. جورج حبيب بباوي – مركز دراسات الآباء بالقاهرة – الطبعة الأولى، ص ٣ – ١٩.

لأن "الكلمة صار جسداً" (يوحنا ١: ١٣). واتخاذ الكلمةُ جسداً يجعل حياةً تنسكب في حياة حتى ما ترتفع هذه الحياة إلى مستوى آخر، هو مستوى الحياة الإنسانية الكاملة التي لا فساد فيها ولا موت، بل خلود ومعرفة الله.

تتبدى مشكلة أرسطو في أن المعرفةَ – عنده – تسبق الحياة، ولكن رسالة الإنجيل تنبني على أن الحياة تسبق المعرفة[١]، فالحياةُ ليست جوهراً حسب فلسفة أرسطو، بل حركةُ كائنٍ حرٍ حيٍ يتحرك نحو كائنٍ آخر حي مُقيد مستعبد *Enslaved* للموت. ولذلك، فالفرق بين الإنجيل في تطلعاته السامية *Semitic* والفلسفة ذات المنهج التحليلي *Analytical* هو فرقٌ بين من يرى الحياةَ شجرةً[٢] تنمو، ومن يرى الحياةَ محدَّدةً *Defined* بالأفكار والنُّظم *Systems* التي فرضها العقل على الحياة وحوَّلها إلى منظومة عقلية أو عدة منظومات.

إن مشكلة نسطور، ومن قبله أرسطو الذي لم يسمع و لم يقرأ عبارة الرسول: "حلَّ فيه كل ملء اللاهوت جسدياً .. وأنتم مملؤون فيه" (كولوسي ٢:)، تبدو في عدم قبول هذا الحلول كما سبق وأشرنا.

ولكن حلول ملء اللاهوت في الجسد الإنساني هو الموقف الحقيقي للمحبة، فلقد فرض التجسد – للإنسانية المثقلة بالألفاظ والكلمات والصراعات الفكرية – أن يكون لكل ما يقال، مرجعية *Term of Reference* وبالتالي لا يمكن الالتفاف حوله أو التراع عليه، وهو ما لم يكن ممكناً أن يحدث في عالم الكلمات، وبحار الأفكار التي تسبح فيها مجالات الفكر بلا شراع ولا بوصلة ولا حتى دفة.

إن العالم العقلي *Rational World* عالمٌ تتوه فيه حتى أبحاث المؤرخين. وعالم الكتب الذي تراه في كبرى المكتبات، يؤكِّد أن الإنسان أكل فعلاً من "شجرة معرفة الخير والشر" قبل أن يأكل من شجرة الحياة، فأسرع إلى معرفة بلا حياة، فكيف يمكن للمحبة ان تثبِّت أقدامها أمام تيارات الفكر التي لا تتوقف؟

عندما نشر *Karl. E. Morrison* كتابه المشهور *I am you* "دراسةٌ في تفسير

---

(١) رسالة ديوجنيتس فصل ١٢.

(٢) شجرة الحياة في سفر التكوين ٢: ١٦ – ١٧.

فهم الآخر في الآداب والفن واللاهوت في الغرب"[١]، فقد كشفت الدراسة إن اختبار وامتحان *Test* المحبة الحقيقي ليس في الخطاب *Discourse* بل في استعداد الإنسان لأنْ يكون مثل الآخر، وليس ذلك فقط، بل أن يكون هو الآخر "I am you – أنا هو أنت". وتلك لم تكن قضية جديدة، بل كانت مسموعة *Heard* ولكنها كانت بلا وجود حقيقي في حياة الإنسان. فالوجود حسب اللحم والدم، وليس بالكلام واللفظ فقط هو الوجود الذي تُمتحن فيه الأفكار. ولو درسنا جيداً الوصية العظمى الثانية: "أحبب قريبك كنفسك"، ثم تعليق الرسول يوحنا: "لا نحب بالكلام ولا باللسان، بل بالعمل والحق"، لوجدنا أن التعليم الإلهي لم يترك الوصية الثانية العظمى بدون مثال حقيقي: "أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا" (راجع يو ١٣: ٣٤)، فقد صارت محبة يسوع المعلَنة في اللحم والدم، المحبة المتجسدة ليست فقط "المثال"، بل "الطريق والحق والحياة". المحبة الكاملة التي جعلت كنيستنا تقول في عشية يوم الرب ونحن نستعد لقبول الرب يسوع جسداً ودماً ولاهوتاً، يسوع كله:

"هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له" [٢].

ومَن يتصوَّر أن يسوع محب البشر سوف يعطي جسده ودمه فقط، وليس كيانه أي أقنومه الإلهي المتجسد، هو مَن سقط – دون وعيٍ – في هرطقة نسطور الذي رفض الإفخارستيا كتناولٍ لحياة وشخص الكلمة المتجسد[٣]. إن مَن يعطي جزءً من كيانه، جزءٌ له ما يماثله عندنا نحن البشر، يكون قد أحب بشكلٍ جزئي وليس حسب عبارة الرسول: "أحبهم إلى المنتهى" (يو ١٣: ١)، فالمحبةُ لا يمكن أن تتجزَّأ.

ومَن يعطي في الزيجة، فقط جسده، بينما الفكر والروح بعيدين، هو من يرتكب "زنى مقنَّعاً"؛ لأن الزاني هو من يلتصق بزانية حسب الجسد (راجع ١ كو ٦: ١٦)، وهو مثالٌ على المحبة المجزَّأة. ولذلك، فالفعل العبراني "زنى"، وهو ذات الفعل

---

(١) الناشر جامعة برنستون، ١٩٨٨.

(٢) راجع الأصول التاريخية واللاهوتية لأصل هذه العبارة في كتابنا "الشركة في الطبيعة الإلهية"، ص ١٣٠ وما بعدها، منشور على موقع www.coptology.com.

(٣) أنكر نسطور الاتحاد الأقنومي في الرب نفسه، وقاده هذا إلى الهجوم على لقب والدة الإله "ثيئوتوكوس"، ثم قادته نفس الأفكار إلى الهجوم على كهنوت الرب يسوع والإفخارستيا.

العربي "زنى"، يعني خلطُ شيءٍ بآخر حتى يفقد كلاهما معاً اللون والطعم والرائحة، مثل مَن يغش اللبن بالماء، أو الخمر بالماء، أو مَن يضيف أحد الأوثان إلى عبادة الله الحي، فتصبح هذه الإضافة "زنىً روحياً"، إذ يفقد الايمان بالله الحي قوامه *Structure* ولا يعود الله هو الله، بل حتى الصنم نفسه، يفقد خصائصه بسبب الخلط بين الله والصنم، كلاهما يفقد خصائصه.

هكذا تفقد المحبة الإلهية المعلَنة في يسوع المسيح خصائصها، بل تهبط إلى مستوى السلوك الإنساني الدنيء الذي يجزِّئ المحبة.

التجسد إمتحان لكل خطاب عن الله والإنسان:

التجسد يُعلن توحيد الله بشكل جازم وحقيقي، وما أكثر أنواع التوحيد التي ترسب في الضمائر والوجدان. فهناك توحيدٌ ينكر الوجود الإنساني، وينسحب هذا الإنكار على دور العقل والإرادة، فيصبح بلا فاعلية، بل ويكون خاضعاً مُستعبداً لإلهٍ واحدٍ يفرض إرادته على الإنسان ويعاقبه إن أساء. ولا نتجاوز الحقيقة إن قلنا إنه **توحيدٌ عقابيٌ وإلغائيٌ**، صار الوحي فيه مرجعيةً أبديةً تُحبُّ الماضي والحاضر، بل والمستقبل أيضاً. وقد يكون للموحِّدين عذرٌ في التمسك بالماضي وفرض الماضي على الحاضر بنصوص مقدسة لا تقبل إلاَّ التفسير، وبالتالي لا يجوز أن يرتفع الفكر إلى مستوى آخر لا سيما في المستقبل الآتي دائماً، المستقبل الذي لا يرسُب في قاع الماضي لأن الماضي سيطر عليه. هكذا جاء تجسد الكلمة لكي يخلع هذا الإطار المفروض على الإنسان، والذي يقهر إرادته *Oppress* ويحطم كل محاولات العبور من الماضي إلى المستقبل.

وإلغاء حرية الاختيار عند الإنسان باسم "شريعةٍ إلهيةٍ" هو إلغاءٌ للإنسان نفسه، ولكن باسم الله الخالق.

وهناك أيضاً **توحيد العزلة الإلهية**، وهو توحيدٌ يمنع كل اتصال بين الله والإنسان ويخلق فجوةً *Gap* أو هوةً لا يمكن عبورها إلاَّ بإعلان إرادة الله، وليس بالإعلان عن ذات الله، وعن حياته وعن محبته للإنسان. وهو توحيدٌ يعشش في أي

نظامٍ سياسي استبدادي *Totalitarian* لا يقبل إلاَّ عزلة الله، ويفرض على الإنسان الخضوع المطلق دون أدنى إعلان، ولو كان إعلاناً لفظياً *Wordy* عن الله. وتصبح الدعوة إليه دعوةً لفرض إرادة عليا لا تقبل الشركة، ولا يوجد للمحبة مكانٌ فيها.

هذا النوع من التوحيد يفرض على الإنسان إطاراً لا يمكن حتى تطويره، وإن سعى إلى التطوير والتقدم، فهو يبني على الماضي؛ لأن الماضي هو النص الإلهي المقدس الذي لا يقبل البحث، وهو بالتالي يلغي كل ملكات الإنسان وقواه العقلية والروحية، ويخلق الجيتو الديني *Ghetto* الذي تلعب فيه الممارسات الطقوسية *Rituals* الدور الأكبر. وهذا النوعُ من التوحيد يملك أن يغرس في الضمائر التعصب والدفاع عن إلهٍ غائبٍ بلا حضور في الإنسان وفي ملكاته وقدراته. وما أسهل أن يدافع الإنسان عن إلهٍ بعيدٍ، أعلن عن إرادته وعن إخضاع الإنسان طوعاً أو كرهاً.

وهناك أيضاً **توحيد الإثنينية** *Dualism* وهو توحيد ماني *Mani* الذي تصوَّر وجود إلهٍ للخير وآخر للشر، إله الخير خلق العالم السماوي الروحي، وهو العالم الذي عاش فيه آدم ومعه حواء قبل أن يهبطا معاً إلى الأرض.

وقد دخل هذا التوحيد في كل مدارس الهرطقات ابتداءً من مدارس الغنوص *Gnosticism* ثم تسلل إلى الأريوسية بعد ذلك في مطلع القرن الرابع الميلادي، وجعل الآب هو الإله الأعظم، والابن هو الإله المخلوق الأصغر، وشطر *Split* أريوس الحياة الإلهية إلى إلهين *Two Gods*. وعندما يحدث هذا الإنشطار يسقط الإنسان نفسه فريسةً لإرادة الإله الأعظم المحتجب *Hidden* والمرتفع بالكبرياء، وهذا الإله لم يخلق الإنسان، بل ترك مهمة خلق الإنسان إلى الإله الأصغر يسوع المسيح.

وفي هذا النوع من التوحيد عودةٌ إلى الوثنية الصريحة، ولكن هذه المرة باستخدام أسماء مسيحية. ومن المؤسف حقاً ان بعض الذين يكتبون عن الأريوسية في مصر بالذات، ولعل آخر هؤلاء هو الأستاذ فاضل محمد فؤاد محمد كامل سليمان في بحثٍ قدَّمه للجامعة الأمريكية المفتوحة بعنوان: "الدفاع عن النفس من دوافع فتح المسلمين لمصر". فقد اعتبر الأريوسية دعوةً للتوحيد، بل وتجاسر على أنْ يكتب أنَّ الأريوسية تثبت أن أجداد مسلمي مصر هم الأريوسيون الموحدون الذين كانوا يمثلون

"فئةً كبيرةً من الشعب المصري قبل الفتح"، وهي كما نرى عبارةٌ عامة بلا تاريخ، فلم يكن هناك إحصاء سكاني عن عدد الأريوسيين، هذا إذا كان له وجود في الواقع على أرض مصر. والعجيب أن القرآن، وهو كتاب الإسلام الأول لم يأت فيه ولو لمحة عن الأريوسية، ولا حتى في أقدم المصادر الإسلامية مثل السيرة النبوية لإبن هشام وغيرها، ولا حتى في كتاب "المغازي". وإذا كان الأستاذ فاضل محمد فؤاد قد نال درجة الماجستير على هذا البحث، فإن الحرج يمنعني من التعليق؛ لأن أهم المراجع التاريخية غائبة، وما ذكره الأستاذ فاضل محمد فؤاد في بحثه! هو ما "كشطه" من مؤلفات تحارب الأريوسية، وفي مقدمتها المجلد الكبير للأستاذ *R. P. C Hanson* الذي أعرفه حق المعرفة، وغاب من المراجع كل من *Rown Williams, Thomas Torrance* وقبل كل هؤلاء المؤرخ الدقيق في تحقيق الألفاظ والتواريخ *John Henry Newman* والمجلد الأساسي في البحث *The Arians of the Fourth Century* الذي طُبع عدة طبعات.

من المؤسف حقاً أن الاضطهاد قد وقع على الذين يؤمنون بالثالوث الذي ينكره المؤلف مثل غيره[١].

إن البحث الذي يعتمد على عقيدة الكاتب وحدها، وهي هنا هي الإسلام، يفرض على الكاتب "نظرةً أحادية الجانب" هي في حقيقة الأمر ثمرةُ توحيدِ عزلةٍ، وهي أحد الأعراض الجانبية *Side effects* التي تلازم تعاطي دواءً معيناً، لأن إنكار مشاركة الله للإنسان في وجوده وفي حياته، تجعل وجود الإنسان نفسه في "عزلة" *Isolation* عن الله وعن الذات الإنسانية التي لا تستطيع الانطلاق إلى الله؛ لأنه لا يرغب في أي علاقة مع الإنسان. وتظهر الأعراض الجانبية لتوحيد العزلة الإلهية في الحياة الإنسانية التي لا دعامة فيها لأي صورة للشركة مع غيره؛ لأن دعوة الشركة غير معروفة على المستوى الإلهي نفسه، فالله ليس سوى واحداً في عزلةٍ، متزّهٍ عن كل اتصال بالإنسان إلاَّ بواسطة الملائكة. وينعكس هذا على السلوك الإنساني نفسه، إذ يصبح الإنسان دون أن يدري صورةً لإله العزلة؛ لأن المثال *Ideal* نفسه يحرص على العزلة، وبالتالي

(١) تُجرى محاولات تزييف التاريخ بحذف أسماء الأباطرة الذين حاولوا فرض الأريوسية بالقوة العسكرية، وأشهر هؤلاء هو الإمبراطور فالنس الأريوسي – ولنا عودة مع هذه الأكاذيب.

تصاب قوى الحب الخلاَّقة في الإنسان بالتعطل؛ لأنها محاصرة *Under siege* في الذات ولا ترتفع أو تسمو فوق الذات.

كذلك هناك ما يسمَّى **بالتوحيد العقلي** *Deism* وهو ما ساد في بعض الكتابات الأوروبية، وهو عبارة عن دعوةٍ إلى الإيمان بخالق العالم، ولكن هو في السماء ونحن على الأرض. هذا النوع العقلي من التوحيد لا يقبل إلاَّ الشريعة الأخلاقية "لحياةٍ حُرةٍ بدون إله في السماء"، فقد حدث طلاقٌ *Divorce* بين الله والإنسان.

تحدِّي التجسد للفكر الإنساني بكل صوره:

لا يشعر أي مسيحي بالفخر عندما يرى خريطة الانقسامات في الكنيسة، الغالبية العظمى منها حول تفسير نصوص كتابية، والباقي من أسباب الانقسامات: لغة – ثقافة – عداوة عرقية – صراع سياسي.

لكن في خضم الصراع العقائدي كله – مهما كانت أنواعه وأشكاله – يقف تجسد الكلمة في تحدٍّ واضحٍ:

* قد نختلف على معاني وتاريخ كلمة "معمودية"، وحول طريقة ممارسة "المعمودية"، ولكننا لا يمكن أن نختلف على أن معمودية المتجسد هي: غطسٌ في المياه – ظهورٌ للثالوث – حلولٌ للروح القدس.

هذه أحداثٌ ووقائع لا يمكن أن ينكرها أحد.

* وقد نختلف حول العشاء الرباني، وما أكثر الاعتراضات التي تراكمت منذ القرن الحادي عشر بعد الجدل العنيف الذي أثاره *Berengar* (١٠٨٨) وكان رئيس كاتدرائية في فرنسا في *Angers* وهو السبب التاريخي الذي دعى كنيسة روما إلى تبني الاستحالة الجوهرية *Transubstantiation*[١] ولكن تبقى حقائق ثابتة:

---

(١) لم يحاول العلامة الوحيد مطران دمياط أن يفهم الفرق بين الاستحالة الجوهرية وهو تعبير لم يكن معروفاً قبل القرن الحادي عشر، والاستحالة السرية ***Mystical*** وليس لمن لم يدرس التاريخ عذرٌ في جهله، ولكن عندما يتحصن الجهل في سلطانٍ، فإن الجهل هو القاتل الأول للسلطان نفسه؛ لأن الزمان يكشف عورة الجهلاء. الجهل يقتل كل سلطان.

- الجسد والدم حقيقة لا يمكن أن تتحول إلى فكرة عقلية.

- التجسد حقيقة أبدية، هي التي تعلن كل مقومات الخلاص، فقد وُلِدَ بالجسد وصُلب بالجسد، وقام بالجسد، وصعد بالجسد، وسوف يأتي الإله المتجسد كما صعد، إذ لا يمكن إنكار الميلاد، والصلب، والدفن، والقيامة والصعود، ثم المجيء الثاني.

* ويتحدى التجسد اهتراء الفكر الإنساني واللاهوت المزيف الذي يحوِّل كل استعلانات الخلاص إلى أفكار .. سوف يظل القلب معلقاً حائراً يبحث عن "الحضور المتجسد"[١] وعن حقيقة علاقة الرأس بالجسد أي المسيح بالكنيسة. ويظل هاجس البحث يلاحق كل الأكاديميين والباحثين حتى في الوقت الذي غابت فيه حقيقة حياة المتجسد ربنا يسوع، وحلَّ محلها أفكارٌ وتحديدات *Definitions* عقلية تدوس على البعد السري *Mystical* وهو ما نراه أحياناً عند الذين يتكلمون عن أجساد ثلاثة: جسد المسيح المولود من العذراء – وجسد المسيح في الإفخارستيا – والكنيسة جسد المسيح!

ما أشقى حياةُ أي إنسان له ثلاثة أجساد، وما أسخف أن تنقسم العلاقة الشخصية والاتحاد بالمسيح يسوع إلى علاقة فكرية تُخضع المسيح نفسه لتصوراتٍ بشريةٍ، ولا تحاول أن ترتفع إلى ما هو أعلى وأعظم، أي إلى العلاقة الجديدة التي تجعل المولود من العذراء يعطي حياته، أي كيانه المتجسد، جسده ودمه، في العلية وفي كل قداس لكي "يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد" (يوحنا ١١: ٥٢)، لا لكي ينقسم هو نفسه على المذابح، أو يترك جسده المولود من العذراء عندما يأتي إلينا حاملاً لنا هبة حياته في العشاء السري[٢].

* ويتحدى تجسد الكلمة ابن الله الإدعاء بأن التعليم نفسه، أي تجسُّد الكلمة

---

(١) "الحضور المتجسد"، تعبير لاهوتي للقديس أثناسيوس الرسولي. راجع في ذلك الرد على الأريوسيين ٢: ٨ – ١: ٥٩ – ٢: ٥٥ – ٢: ١٦، تجسد الكلمة فصل ١٨.

(٢) من الأخطاء الشائعة، وصف عشاء العلية بالعشاء الأخير، فليس لدينا سوى عشاء أخير واحد، وهو آخر قداس تقيمه الكنيسة قبل يوم الدينونة.

هو تعليمٌ موروثٌ عن الوثنية. هنا يقف الفكر في دهشةٍ، **مصـــدرها الأول**: هـــو أن الوثنية هي أصل كل الحضارات الإنسانية. صحيحٌ أنه ضللت الطريق إلى الله، ولكنها ظللت بحث الإنسان الدائم والدؤوب عن الله. تلك هي الحقيقة التاريخية التي لا يريـــد الأصوليون أن يفكروا فيها ولو إلى برهة. وها نحن نقدم الدليل التاريخي نفسه على أن الوثنية هي أصل كل الحضارات والثقافات الإنسانية:

١- ولدت كل الشرائع القانونية التي تحدد علاقة الفرد بالمجتمع، في الـــزواج، والطلاق، وتعدد الزوجات، والميراث، والتبني ... الخ في قلب كل الحضارات القديمة: المصرية، والبابلية، والفارسية، والأشورية ... الخ.

٢- أماكن العبادة، والهياكل، والصلوات، والأدعية، والأعياد، ورجال الدين أنفسهم الكهنة والنبيون، فقد كانت لكل وثنية أنبياء وكهنة .. الخ.

٣- الكتب المقدسة الموحى بها من الآلهة والتي تحدد علاقة الإنسان بخالقـــه، ودور الآلهة في الحياة المدنية، والحروب، وقيادة الأمة، واختيار الحكـــام مـــن ملـــوك وأمراء.

٤- تقسيم السنة وتحديد مواعيد الزرع والحصاد.

٥- ظهور الطب والكيمياء والهندسة.

هذه بعض ملامح الحياة الإنسانية القديمة التي ظللت الطريق إلى الله الواحـــد، ومع ذلك ظلت الإنسانية على علاقة بخالقها، تحتاج إلى إصلاح وإعادة صـــياغة، لأن الأساس في التدين هو علاقة بين الإنسان وخالقه.

ثانياً: اختلفت العلاقات الإنسانية/الإلهية في مدارس الحضارات القديمة. وقـــد حصر علماء الاجتماع هذه الاختلافات في عدة نقاط محددة:

١- علاقة إلغاء الإنسان من أجل الآلهة، والتي كان البشر يذبحون فيها البشر ويقدِّمونهم على مذابح الآلهة.

٢- علاقة "شراكة" تقوم على التوسل، وإرضاء الآلهة والخضوع لها، والبحث عن سبيلٍ إلى إرضائها، وهو ما نراه في الألياذة والأوديسة، وبعض الطقوس المصـــرية القديمة مثل اتقاء غضب الإله "ست" وحمل التعويذة .. الخ.

٣- علاقة خاصة بين الملك والآلهة، مثل علاقة فرعون ابن رع الإله الأكبر، وهي علاقة سياسية بحتة من أجل إقرار وتثبيت الحكم الملكي.

ثالثاً: هل كانت الدعوة النبوية في العهد القديم، ثم استعلان الكلمة ابن الله هي امتداد للحراك والإرهاصات الإنسانية القديمة؟

والجواب الدقيق لا يحدده البحث التاريخي وحده، بل عقيدة الباحث الدينية. فما نراه في الوثائق القديمة يحدد رؤيتنا حسب اعتقادنا، وحسب إيماننا بنوع **العلاقة العامة** التي يتولاها الله خالقنا نفسه مع البشر عامةً في كل زمان ومكان. هذه العلاقة العامة يؤكدها وجود **خطوط متوازية** *Parallel* بين الديانات كلها، تظهر كما لو كانت من مصدر واحد، وهو الخبرة الإنسانية. ولكن هنا يجب أن نتوقف أمام هذه الظاهرة التي - حسب الاعتقاد الديني للباحث نفسه - تبدو وكأن هذه الخطوط تؤكد عمل روح الرب، روح الحكمة في كل المخلوقات العاقلة وغير العاقلة، عمل القيادة والإرشاد، وهو ما يظهر بوضوح في الكتابات النبوية في العهد القديم في اشعياء والمزامير لا سيما مزامير ٩٤، ٩٥ وبالذات ٩٦، ٩٧ لأن الله يملك على كل الأرض، وهذه الدعوة النبوية هي دعوة انهيار الوثنية.

"اَلرَّبّ قَدْ مَلَكَ، فَلْتَبْتَهِج الأَرْض، وَلْتَفْرَح الْجَزَائر الْكَثيرَة. السَّحَاب وَالضَّبَاب حَوْلَه. الْعَدْل وَالْحَقّ قَاعدَة كرْسيّه. قدَّامَه تَذْهَب نَارٌ وَتحْرق أَعْدَاءَه حَوْلَه. أَضَاءَتْ بروقه الْمَسْكونَةَ. رَأَت الأَرْض وَارْتَعَدَتْ. ذَابَت الْجبَال مثْلَ الشَّمْع قدَّامَ الرَّبّ، قدَّامَ سَيّد الأَرْض كلّهَا. أَخْبَرَت السَّمَاوَات بعَدْله، وَرَأَى جَميع الشّعوب مَجْدَه. يَخْزَى كلّ عَابدي تمْثَال مَنْحوتٍ، الْمفْتَخرينَ بالأَصْنَام. اسْجدوا لَه يَا جَميعَ الآلهَة" (مز ٩٧: ١ - ٧).

فالقول النبوي: "اسْجدوا لَه يَا جَميعَ الآلهَة"، هو استعلان الإله الحقيقي على كل آلهة الشعوب؛ لأن الله هو الله العلي على كل الشعوب (مز ٩٩: ٢).

وهنا يقول سفر الأمثال:

"أَنَا الْحِكْمَةُ أَسْكُنُ الذَّكَاءَ، وَأَجِدُ مَعْرِفَةَ التَّدَابِيرِ. مَخَافَةُ الرَّبِّ

بُغْضُ الشَّرِّ. الْكِبْرِيَاءَ وَالتَّعَظُّمَ وَطَرِيقَ الشَّرِّ وَفَمَ الأَكَاذِيبِ أَبْغَضْتُ. لِي الْمَشُورَةُ وَالرَّأْيُ. أَنَا الْفَهْمُ. لِي الْقُدْرَةُ. بِي تَمْلِكُ الْمُلُوكُ، وَتَقْضِي الْعُظَمَاءُ عَدْلاً. بِي تَتَرَأَّسُ الرُّؤَسَاءُ وَالشُّرَفَاءُ، كُلُّ قُضَاةِ الأَرْضِ" (أمثال ٨: ١٢ – ١٦).

فالحكمة هي القوة الخالقة التي رسمت حدود كل شيء في الخليقة (أمثال ٨: ٢٧) وراجع التعبير الفخم *Elegant*

"لَمَّا ثَبَّتَ السَّمَاوَاتِ كُنْتُ هُنَاكَ أَنَا. لَمَّا رَسَمَ دَائِرَةً عَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ. لَمَّا أَثْبَتَ السُّحُبَ مِنْ فَوْقُ. لَمَّا تَشَدَّدَتْ يَنَابِيعُ الْغَمْرِ. لَمَّا وَضَعَ لِلْبَحْرِ حَدَّهُ فَلاَ تَتَعَدَّى الْمِيَاهُ تُخْمَهُ، لَمَّا رَسَمَ أُسُسَ الأَرْضِ، كُنْتُ عِنْدَهُ صَانِعًا" (أمثال ٨: ٢٧ – ٣٠).

وحسب عقيدة الباحث، يرى أن الله هو الذي يقود الكون ويدبر كل الخلائق؛ لأن الحكمة "فَرِحَةً (فرحانة) فِي مَسْكُونَةِ أَرْضِهِ، وَلَذَّاتِي مَعَ بَنِي آدَمَ" (أمثال ٨: ٣١).

وعندما يقول أشعياء: "وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ بَرِّيَّةِ الْبَحْرِ" (أش ٢١: ١)، "وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ دُومَةَ" (أش ٢١: ١١)، "وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ بِلاَدِ الْعَرَبِ" (أش ٢١: ١٣)، يؤكد أن الله لم يترك العالم. وكما قلنا سابقاً إن عقيدة الباحث هي التي تحدد الإجابة. فقد جاء عصر الإصلاح الأوروبي بفكرة جديدة لم تكن ضمن عقائد المسيحية شرقاً وغرباً، مؤداها الانقطاع التام، وفصل الخليقة عن الله بسبب سقوط آدم، ولذلك صار انفصال الخليقة عن الله. وحارب كل من *E. Brunner* برونر وكارل بارت الآخر، حول ما إذا كان من الممكن معرفة الله بشكل "لدني"، وهل هذه المعرفة صحيحة أو مشوهة؟ وثار جدلٌ طويل قد لا ينتهي[١].

وحسب الإيمان الأرثوذكسي نفسه لا يمكن فصل الخليقة عن الله، للأسباب الآتية:

---

(١) راجع على سبيل المثال المجلد الذي صدر من جامعة اوكسفورد عام ١٩٩٨ بعنوان: تطور العقل The Evolution of the Mind، وهو لمجموعة من الباحثين.

١- لأن الوجود كله يعتمد على الخالق. فلا يوجد كائن ذاتي الوجود، أي له حياة في ذاته.

٢- الوجود كله، وهذا يشمل الملائكة، جاء من العدم وكل الأشياء كائنة بقوة وعمل الله.

قد يفصل الكائن نفسه عن خالقه، ومع ذلك يظل الله يمده بالحياة. والوجود هو نعمة من الله لا يمكن أن تنتهي؛ لأن هذا معناه نهاية الكائن نفسه وعودته إلى العدم. هذا ما يطرحه بوضوح الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا، والإصحاح الأول من كولوسي، وبشكل محدد في العبرانيين (١: ٢، ٣)[١].

فإذا تعذَّر فصل الخليقة عن الله، ظل الإنسان يحمل صورة الله في داخله، وهي التي تجعله دائب البحث عن الله، وعندما يضل الطريق، يظهر مَن يرده، وهو ليس بالضرورة من أنبياء بني اسرائيل، بل من الفلاسفة مثل سقراط وارسطو وغيره.

وعندما نرفض وجود شركة بين الإنسان والله، فإننا نرفض الإبداع الإنساني في الحضارات القديمة، وهو إبداعٌ كان يحرِّكه الكلمة *Logos* لأنه هو قائد الخليقة نحو الله. وهو الذي يزرع بذرة الإدراك في كل الكائنات ومن هنا جاء التعبير *Logos Spermatikos* عند الآباء المدافعين عن الايمان مثل اثيناغوراس، ويوستينوس الشهيد[٢].

هكذا تظهر صورة خريطة الحياة الدينية واضحة بشكل أفضل:

١- إعلان إلهي دائم في القلب والوجدان؛ "لأن معرفة الله ظاهرة" (رو ١: ١٩)؛ لأن الله نفسه هو الذي أظهرها (رو ١: ١٩)، وعرفت كل الشعوب الله (رو ١: ٢١)، ولكن المعرفة وحدها لم تكن كافية، بل جاءت الشرور بظلمة الإدراك (رو ١: ٢١ - ٢٢)، ولذلك انحرف الإنسان نحو عبادة ذاته، أي الوثنية.

٢- اختلاط الحق بالباطل، وهو ما استوجب استعلان الابن الكلمة في جسدٍ، حتى يبقى الجسد الإنساني هو التحدِّي الإلهي "لتوهان" الفكر البشري، وعودته إلى ما

---

(١) "الَّذِي بِهِ أَيْضًا عَمِلَ الْعَالَمِينَ، الَّذِي، وَهُوَ بَهَاءُ مَجْدِهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ، وَحَامِلٌ كُلَّ الأَشْيَاءِ بِكَلِمَةِ قُدْرَتِهِ".

(٢) راجع دفاع يوستينوس ١: ٥٩. راجع أيضاً بحث F. E. Peters بعنوان The Harvest of Hellenism "حصاد الهللينية".

أُعلن في الجسد.

الآباء الذين عاشوا تحت ظلال الوثنية:

لم تكن الإسكندرية، حيث بدأت الكنيسة المصرية، مدينةً وثنيةً تماماً، بل كانت تجمع في داخلها أكبر جالية من يهود الشتات، وهم الذين ترجموا العهد القديم المعروف باسم السبعينية إلى اللغة اليونانية. وقد صلنا من مصر – بشكلٍ خاص – أقدم برديات العهد الجديد قاطبة، وهي البردية المعروفة باسم P55 وغيرها من برديات عُثر عليها في الفيوم وفي أماكن متفرقة من مصر. وكذلك بردية P52 وهي شاهد على وجود إنجيل يوحنا، لأنها تحتوي جزء من الإصحاح ١٨: ٣١، ٣٢، ٣٣، وتحتوي على كلمات الإنجيل الخاصة بمحاكمة الرب يسوع أمام بيلاطس ثم صلبه.

ووجود هذه البردية في الفيوم حوالي سنة ١٥٠م يؤكد أن هذا الإنجيل كُتب في عصر مبكر جداً يسبق سقوط أورشليم ودمار الهيكل، لأن الإشارة إلى الهيكل في يوحنا (٢: ١٩) تؤكد أن الهيكل كان لا زال قائماً، أي قبل سنة ٧٠ وهي السنة التي دُمِّر فيها الهيكل. وعلى هذا الأساس، أي وجود الإنجيل في الفيوم في مصر حوالي سنة ١٥٠م نعرف أن المسيحية انتشرت في مصر، ووصلت إلى الفيوم مع بداية القرن الثاني الميلادي.

كذلك لدينا كتابات مسيحية سكندرية من نفس الفترة، وهي رسالة ديوجينيتوس، ثم رسالة برنابا، ودفاع اثيناغوراس، والعلامة أكليمنضس .. هذه كلها تؤكد وجود كنيسة وجماعة مسيحية في مصر. وجاءت بردية دير مار سابا في فلسطين، وهي خطاب العلامة أكليمنضس السكندري الذي يؤكد فيه أن القديس مرقس كتب الإنجيل مختصراً في الإسكندرية لتعليم الموعوظين. هذه البردية أثارت فضول المؤرخين، وقَبِلَها البعض وطعن البعض الآخر في صحتها، ولكنها تؤكد ما سجَّله يوسابيوس القيصري عن كرازة مار مرقس، وهو ما نقله باللغة العربية عن يوسابيوس القيصري (مؤرخ القرن الرابع) العلامة ساويروس ابن المقفع أسقف الأشمونين في كتابه تاريخ البطاركة.

فهل كان الآباء، وهم أكثر من قرأ ودرس الكتابات اليونانية الكلاسيكية مثل أكليمنضس وأوريجينوس .. اقول هل كان هؤلاء يجهلون الوثنية؟ وهل كان أوريجينوس ذو الاسم المصري الأصيل، فهو يعني "ابن الإله حورس" أو "مولود حورس"، والذي أتقن اللغة العبرانية بجانب اليونانية، هل كان أيضاً يجهل الوثنية؟

وإذا كان هؤلاء الآباء قد قرءوا الأدبيات الوثنية و لم يكونوا يجهلونها على الإطلاق، بل كانوا أكثر وعياً من د. يوسف زيدان وغيره بما تُعلم به الوثنية عن الآلهة وعن علاقة الآلهة بالبشر، فهل كان صعباً عليهم أن يكتشفوا أن التجسد هو تعليم وثني قديم؟

غريب جداً هذا الادعاء الذي يحكم على أصحابه بالافتقار إلى الدليل والتاريخ، تعوزهم أرضٌ يقفون عليها سوى كراهية واضحة للمسيحية، وكنيسة مصر[١].

هناك دلائل تؤكد أن بعض اليهود الذين آمنوا بالمسيحية في يوم الخمسين حسب شهادة سفر الأعمال (٢: ١٠) كانوا مصريين، ومن ضمن هؤلاء أبولوس السكندري الذي أضاف الناسخ المصري في هامش على نص سفر الأعمال (١٨: ٢٤) في المخطوطة التي تُعرف باسم مخطوطة *Beta* أنه "تلقى الإيمان في وطنه الأصلي الإسكندرية".

لقد كان هؤلاء يعرفون تحقيق نبوات العهد القديم، وكانوا في انتظار "المسيح" وآمنوا وأدركوا أنه هو يهوه[٢] الإله المخلص.

التجسد الإلهي له أبعادٌ ثلاثة: إلهية / إنسانية:

العيد هو كل يوم. المتجسِّد حقق بتجسده ثلاثة أبعاد إلهية / إنسانية، وعليها

---

(١) تجاسر د. يوسف زيدان على أن يطلق على كنيستنا اسم الكنيسة اليعقوبية، وهو اسم احتقار استخدمه الملكانيون. وهو يجهل أن الاسم الحقيقي التاريخي هو الاسم الذي نردده في القداسات حيث تجتمع الكنيسة. ما أغرب الحقد فهو يخلق كل ما هو غير معقول؛ لأن الحقد يفتقر إلى ما هو معقول.

(٢) استخدم العهد الجديد اسم يهوه نقلاً عن العهد القديم (الترجمة السبعينية) اسم يهوه للمسيح يسوع على الأقل ١٢ مرة وهو ما سوف ننشره في الفصل الثاني من الرد على د. يوسف زيدان.

شيَّد المتجسد نفسه كل شيء:

أولاً: الاتحاد الدائم الأبدي بين اللاهوت والإنسانية. وقد بدأ هذا الاتحـــاد في بيت لحم، ونما مع مسيرة الرب نفسه، فقد عَبَرَ الموت وقام حياً في اليوم الثالث، معلناً أن جسده مُتَّحدٌ بلاهوته إلى الأبد. هكذا هدم الرب بالاتحاد الأقنومي كل ما يفصـــل الإنسان عن الله. **فالعيد هو عيد اتحادنا الأبدي بالله الثالوث.**

ثانياً: أسس الاتحاد حلول اللاهوت فينا نحن البشر. فقد حذَّرنا رسول المسيح أن لا نقع "سبايا" للفكر الفلسفي، وأن لا نقع ضحايا "للغرور الباطل حسب تقليـــد الناس، حسب أركان العالم "، أي حسب كل المقاييس والنظريات التي تفصل الانسان عن الله، وأضاف الرسول مقدِّماً أعظم نصيحة، وهي أن نكون "حســـب المســـيح" (كولوسي ٢: ٨) وما هو حسب المسيح"؟ والجواب من ذات كلمات القديس بولس عن "حسب المسيح":

"فإنه فيه (المسيح) يحلُّ كل ملء اللاهوت جسدياً (كولوسي ٢: ٩). ولكـــن لم يقف الرسول عند إعلان مجيء الكلمة إلينا، بل أضاف: "وأنتم مملؤون فيه". تـــردد هذه الكلمات صلاتنا القديمة: "وعند صعودك إلى السموات جسدياً، إذ ملأت الكـــل بلاهوتك ..."، فقد ملأ الكل بالمعرفة (تجسد الكلمة ١٦: ٣) وبالحياة وبقوة القيامـــة وردَّنا إلى الشركة مع الآب بالروح القدس.

ثالثاً: ومن الاتحاد الأقنومي نبعت الأسرار: المعمودية – الميرون – الإفخارستيا وباقي الأسرار. وكوَّنت الكنيسة التي يوحِّدها الابن المتجسد "الرأس" بقـــوة واتحـــاد لاهوته بنا، كما أخذنا في الأسرار قيامة الجسد وميراث الملكوت الأبدي.

بشارة الفرح العظيم:

أيها الثالوث الواحد والمثلث بالأقانيم وبالمحبة،
محبة ثالوثية ترسل الابن إلينا، وتعطي لنا الروح القدس؛
لكي تجمعنا في "حضن الآب".
* محبةُ الآب التي تقدِّم الابن في تواضع تجسده.

* ذات المحبة التي للابن الذي يتَّحد بنا في سر تجسده.
* ذات المحبة التي تسكب الروح القدس على الجسد الذي كـوِّن في أحشـاء البتول؛ لكي ننال مِسحة تجسده.
* محبةٌ ناريةٌ تُبيد الموت، وترفع الدينونة، وتُقيم الحياة الإنسـانية إلى خلـودٍ؛ لكي نصبح نحن وارثين شكل وجوهر حياة تجسده.
* محبةٌ تنسكب في يوم العنصرة؛ لكي يجمع الروح القدس الشعوب معاً؛ لكي تتوحد وتصبح جسداً واحداً، هو جسده الكنيسة.
* بشارةُ فرحٍ أبدي.

الجسد الواحد:

يقول معلمنا العظيم أثناسيوس إن الرب "لم يمت موت يوحنا بقطع الـرأس، ولا مات موت أشعياء بنشر الجسد، وذلك لكي يحفظ جسده غير منقسم وصـحيحاً تماماً حتى في موته، وحتى لا تكون هناك حجة لأولئك الذين يريـدون أن يقسِّـموا الكنيسة (تجسد الكلمة ٢٤: ٤).

لم يُقسَّم جسدك يا ابن الله على الصليب، بل "وعظمٌ منك لم يُكسر"، فكيف تتجاسر عقولٌ نائمةٌ في أحلام الانفصال على أن تجعل لك جسداً من العذراء، وآخـر في الإفخارستيا، وثالث هو الكنيسة، كأن تجسُّدَكَ لم يكن له هدفاً!! لكنـك جئـت لكي تجمع "أبناء الله المتفرقين إلى واحد" (يوحنا ١١: ٥٢). فأنت تجمع لأنك الحياة، أمَّا الفاشلون في المحبة فيُقسِّمون؛ لأن محبتَك مخيفةٌ حقاً، ومرعبةٌ لضمائر تحب العزلـة، وتسعى إليها؛ لأن الشركة تهدد الأنانية التي تولد من هاوية البغضة.

لكنك أنت هو المولود من العذراء بلا زواج، وأنت ذاتك الذي هـو علـى المذبح؛ لأن ولادتك من العذراء بالروح القدس، نقلت الحياة من ينبوع آدم الذي هو ينبوع الموت إلى ينبوع الحياة الأبدية المتدفِّق من إلوهيتك والمستعلَن في تجسُّدِك.

أنت هو هو المصلوب قاهر الموت؛ لأنك بالصليب عبرت بنا كـل حـدود الانفصال. نعم كل الحدود: حد القبر، وحد الزمان، وحد المكان، فقد دَقَّتْ المسامير

في جسدك كل أبعاد الحياة المنظورة، وأعلنْتَ قيامتك.

أنت تحتوي الزمان والمكان؛ لأن الحياة غَلَبَت ليس الموت والفساد فقط، بل وكل ما هو أرضيٌ أيضاً. ولأنك حيٌ بإلوهيتك، صار جسدُك حياً ومحيياً بإلوهيتك، لا يأكل ولا ينام ولا يتعب ولا تحاصره أبعاد الزمان.

لقد احتوت محبتك ما يفصل المحدود وغير المحدود، فصارت المحبة أقوى من كل الحدود. عبرت بالمحدود، أي ناسوتك إلى غير المحدود بالعدد، وهو الجنس البشري، وعبرت بإلوهيتك حدود الزمان؛ لأنك معنا إلى انقضاء الدهر (مت ٢٨: ٢٠) وحدود الأيام.

لقد "ارتفعت" على الصليب، ورفعت ما يمنع الشركة، وارتفعت بالقيامة، فدمَّرت القبر، وارتفعت بالصعود؛ لكي تجمع شتات البشر في ملكوت الآب.

يا وحيد الجنس إن الكلام سهلٌ، والحديث شيقٌ، ولكن تجسُّدَكَ ليس كلاماً ولا حديثاً، بل هو المحبة الباذلة النارية التي أحبَّتْ جنسنا، فصار لقبُكَ "محبُ البشر" عَلَمَ الخلاص ورايةَ الحياة.

المجد لك مع أبيك الصالح والروح القدس.

د. جورج حبيب بباوي

٢٨ ديسمبر ٢٠١٠